المجلة الجزائرية للاتصال العدد 01(2012) ، ص71 ــ 93
ISSN:1111-536X EISSN:2676-1793

المواطنة الأيكولوجية، الهوية الثقافية، العولمة أي علاقة؟

بلقاسم بن روان*

مقدمة: تطور المفهوم الحديث للمواطنة مع تشكل الدولة القومية التي تحتكر لنفسها السيادة المطلقة داخل حدودها، لذا تعرف الدولة القومية باسم دولة القانون والمؤسسات المستندة إلى الإرادة الشعبية فهذه العناصر الثلاثة: "السيادة، القانون، والمؤسسات الديمقراطية" هي ما يعطي لمفهوم المواطنة معناه ، وتعددت التعريفات لمفهوم المواطنة ، حيث يستمد المفهوم معناه في اللغة من مفهوم الوطن محل الإقامة بينما نظر قاموس علم الاجتماع إلى المواطنة باعتبارها مكانة أو علاقة اجتماعية تقوم بين فرد طبيعي ومجتمع سياسي "دولة"، يقوم من خلالها الطرف الأول "المواطن" بتقديم الولاء، بينما يتولى الطرف الثاني الحماية ، وهذه العلاقة تتحدد عن طريق أنظمة الحكم القائمة ، وعن الصور الحديثة للمواطنة يشير "جون جوري" في أحد دراساته بشان "العولمة والمواطنة " إلى عدة صور جديدة للمواطنة، من بينها المواطنة الإيكولوجية "البيئة" التي تتعلق بحقوق والتزامات مواطني الأرض، ومواطنة الأقلية وتتضمن حقوق الدخول في مجتمع ما والبقاء فيه ، والمواطنة "الكوزمو بوليتانية" وتعني كيف ينمي الناس اتجاهاً إزاء المواطنين الآخرين والمجتمعات والثقافات الأخرى، والمواطنة المتحركة وتعنى الحقوق والمسؤوليات لزائري الأماكن

* جامعة الجزائر"3" كلية علوم الاعلام والاتصال.

والثقافات الأخرى، وهناك من المفكرين من يدعوا للكونية، حيث ربطوا بين مستويات المواطنة، بين مواطن الدولة والمواطن العالمي بطريقة تسمحُ بالمصالحة بين الحق وكرامة الإنسان، وبين الهوية وسيادة الشعوب وتآزر كلّ ساكني الكوكب ، ذلك أن المواطنة العالمية تقتضي الاعتراف بالآخر كآخر، فالآخر في هذا المنظور ليس غريبا بصفة مطلقة ، وليس هو نسخة مطابقة للذات، والعالمية تصالح بين خصوصية الشعوب والغيرية ، تصالح بين الهوية والاختلاف، تبرز الكوني في الخصوصي والخصوصي في الكوني ، ويستند هذا المنحى في إرساء مبدأ المواطنة العالمية على ركيزتين الأولى ،عالمية التحديات في طبيعتها كعدم المساواة الاجتماعية والاقتصادية ، والامتلاك غير المتساوي لتقنيات المعلومات والتدهور البيئي وتهديد السلام وانخفاض الخصوصية " أو العداء ومحاربة الآخر بدعوى أن بقاءه بهويته فيه تهديد ضمني وصريح لهوية المهيمن المتمثل في النظام الرأسمالي المعولم ، والذي تمثله ميدانيا الشركات المتعددة الجنسيات ككيانات اقتصادية اخطبوطية فلتت من سيطرة الأنظمة السياسية في بلد المنشأ والثانية هناك أمماً ومجتمعات ذات ديانات وثقافات وأعراف وتقاليد ونظم مختلفة. وأسفرت الاجتهادات الغربية المعاصرة لتحليل طرفي هذه المعادلة عن تفاعلات تلخصت في صياغة عناصر جديدة للمواطنة ، تأسس على اثرها مصطلح جديد في الخطاب المعاصر هو المواطنة العالمية.[†]

[†] طلعت مصطفى السروجى ، مؤتمر الخدمة الاجتماعية والمواطنه، المعهد العالى للخدمة الاجتماعية بالمنصورة، المواطنة العالمية والايكولوجية والسياسة الاجتماعية الدولية، قراءة واعية ، جامعة حلوان، مايو 2009 . http://socio.montadarabi.com/t2740-topic

أولا: السياق العالمي للمواطنة الإيكولوجية:‡

تشير الموسوعة البريطانية الى أن المواطنة " هي علاقة فرد ودولة كما يحددها قانون تلك الدولة، وما تتضمنه تلك العلاقة من واجبات وحقوق في تلك الدولة، فالمواطنة تتضمن مستوى من الحرية تصاحبها مسؤولية مناسبة". وبنفس المنطق، فأن المواطنة تمثل رباط سياسيا بين المواطن والدولة يكون من شأنه ترتيب مجموعة من الحقوق والواجبات العامة، لعل أهمها انفراد المواطنين بالحق في اختيار حكامهم من خلال انتخابات دورية حرة ونزيهة، وأن يكون لهم دورهم في الرقابة على سلوك الحكام من خلال مؤسسات تمثيلية منتخبة، وكذا من خلال الرأي العام ومنظمات المجتمع المدني. وهذا ما يعني أن المواطنة هي عضوية نشطة في مجتمع سياسي في إطار من الحقوق والمسؤوليات التي يحددها الدستور والقانون، وممارسة حقوق المواطنة بشكل كامل تتطلب توفر نظام سياسي ديموقراطي وتستدعي بناء مؤسسات المواطنة (أحزاب، جمعيات، تنظيمات) ليتشكل فيها الوعي السياسي ويتدرب في إطارها المواطن، ومن المهم القول بأن مفهوم المواطنة في إطار الدولة الوطنية مر بتطور أفقي من ناحية ورأسي من ناحية ثانية، فالتطور الأفقي سار في اتجاه توسيع قاعدة المواطنة من الأقلية الأرستوقراطية الى المواطنة التي تشمل جميع أفراد المجتمع، أما التطور الرأسي فشمل تطور مبدأ المشاركة في صنع القرار السياسي وحدد هانس 06 مستويات للمواطنة نوردها فيما يلي:

‡معطار بدرية، البعد الاتصالي للجمعيات البيئية ومكانة المواطنة الإيكولوجية ،دراسة وصفية تحليلية لمخططات الاتصال البيئي للجمعيات البيئية الناشطة في الجزائر ، تحت اشراف الأستاذ : بلقاسم بن روان، مذكرة مقدمة لنيل شهادة ماجستير في علوم الإعلام والاتصال ، جامعة الجزائر"3" ،كلية علوم الاعلام والاتصال ، 2011-2012.

- المستوى الأول: القرار أحادي لرأس السلطة.
- المستوى الثاني: إعلام الجمهور بالقرار دون أخذ رأيه.
- المستوى الثالث: استشارة الجمهور بدون الأخذ برأيه.
- المستوى الرابع: استشارتهم والأخذ برأيهم.
- المستوى الخامس: إشراكهم في مواجهة القضايا وحل المشاكل.
- المستوى السادس: وجود سلطة اتخاذ القرار في يد عامة المواطنين من خلال إرساء أليات ممارسة الديموقراطية ، وهذا أفضل مستوى تتحقق فيه الديموقراطية ، حيث تتسع قاعدة المواطنة بمفهومها الشامل، إذن فالمواطنة هي عملية مشاركة جميع المواطنين بفاعلية في الحياة السياسية لمجتمعهم ودولتهم، وتتشكل بالتالي البنية الأساسية في النسيج الاجتماعي والمجتمعي المتكامل، بقطع النظر عن الاختلافات بين المواطنين "الطبقية والثقافية والسياسية والعقائدية".[§]

أما مفهوم المواطنة الإيكولوجية، فهو مفهوم حديث استخدم لأول مرة في مؤتمر الأمم المتحدة للبيئة والتنمية " قمة الأرض بريودي جانيرو 1992 "، وهو يعبر عن صور المواطنة العالمية في سياق كوني جديد تميزه ثورة معلوماتية وثورة اتصالية ، في هذا الصدد يوضح المفكر الألماني "اولريش بك" (Ulrich Beck)، أن الفكرة الرئيسية التي يتم من خلالها رصد

[§]عيسى الشماس، المجتمع المدني المواطنة والديموقراطية، منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق، 2008، ص 43.

ملامح مجتمع المواطنة الإيكولوجية، تفسر في ضوء الحداثة الثانية* التي تتميز بمجموعة من المؤشـــرات تتمثل في تقنية الإعلام القائمة على العلم والعولمة والفردية والأزمات البيئية.(**) وما يمكن اســـتنتاجه من طروحات "أولريش بك" (Urlich Beck)، أن هناك عولمة اقتصـادية أعادت تشكيل الاقتصـــــاد العالمي من خلال نظام التجارة الحرة وتنامي تدفق رؤوس الأموال والمعلومات، متجاهلة مســـألة حماية البيئة وحقوق الإنســـان ، وبالموازاة مع ذلك هناك عولمة اعلامية اتصـــالية حولت العالم إلى قرية كونية وهي بالأســاس قرية ظالمة ، تتوهم التأسـيس لفكرة تضـامن للجنس البشـري، طارحة فرصـا حقيقية للإنسـانية لتحويل الأزمات البيئية الشـاملة الى ضـروريات لنشـر الديموقراطية والمواطنة العابرة للحدود ، هذا الوضـع بتداعياته السياسية والاقتصـادية والاجتماعية والثقافية المختلفة والمتناقضـة عمق الصراعات والنزاعات العالمية وأسس لبؤر توتر دائمة ومستمرة تعمل قوى الســوق والرأســمالية الليبرالية على تغذيتها واســتمراريتها ، ونتج عنه كردة فعل لمواجهة هذا الظلم والإجحاف في حق الإنسان ، وخاصة إنسان البلدان المتخلفة والفقيرة إلى انبثاق حركة اجتماعية على نطاق عالمي هدفها مناهضـــة العولمة، تلك الحركة التي شـكلت نوعا من النضـــال من الداخل ضـد الفكر الليبيرالي الذي يقوم أسـاسـا على معايير التبادل الحر، الحرية الفردية وإبعاد الدولة عن النشـاط الاقتصـادي ،هذه الحركة العالمية

(*) الواقع أن التحول من الحداثة الأولى التي حددت بنموذج الحياة الجماعية ، مثل الوقت الكامل والدولة الوطنية والاجتماعية والطبيعة المسـتغلة ببطء الى الحداثة الثانية التي حددت عن طريق الأزمات البيئية والعولمة.

(**) أولريش بك، ترجمة أبو العيد دودو، هذا العالم الجديد ! رؤية مجتمع المواطنة العالمية، الطبعة الأولى، منشورات الجمل، كولونيا، 2001، ص41.

قدمت نقدا لكل ممارسات الرأسمالية العالمية وممارساتها التي تدار بها شؤون المجتمعات الحديثة، وجاءت كذلك لتعبر عن القوى الداعمة لعولمة أكثر عدالة وإنسانية ، والحركة المناهضة للعولمة لا تمثل تنظيمات تقليدية، متجانسة فكريا وعقائديا ولا تخضع لتوجيه مركزي قيادي موحد، بل تتكون من حركات ومنظمات طلابية وشبابية ونقابية ومهنية شتى وأيضا من أنصار حقوق الإنسان والبيئة ، وتضم في صفوفها عناصر شديدة التباين في توجهاتها السياسية وشعاراتها من أقصى اليمين الى اقصى اليسار.[††] واستطاعت هذه الحركة المناهضة للعولمة فتح نقاش سياسي عالمي حول التأثيرات السلبية للعولمة الاقتصادية على البيئة والتنمية المستدامة ، والعولمة كما ترى هذه الحركة المناهضة للعولمة تعكس إخفاقات السوق واضطراب السياسات التنموية وعدم تناسقها مما يفاقم من تدهور البيئة، وعمقت العولمة حالة التمييز في مستويات النمو والتطور الاقتصادي بين دول الشمال ودول الجنوب.[‡‡] وفي نفس الاتجاه، تؤيد منظمة أصدقاء الأرض" Friends of Earth" التيار المناهض للعولمة لعدة أسباب منها:

* زيادة نسب التباين الاقتصادي ما بين الدول وضمن الطبقات للدولة الواحدة.

(††) جودت هوشيار، الحركات المناهضة للعولمة: ما لها وما عليها، الموقع الإلكتروني، www.ahewar.org.

(‡‡) علاء محمد خواجة، العولمة والتنمية المستدامة، الموسوعة العربية للمعرفة من أجل التنمية المستدامة، الطبعة الأولى، الأكاديمية العربية للعلوم، بيروت، ص414.

* تركيز الثروة والقوة بأيدي نخب اقتصادية وسياسية معينة وحرمان بقية الناس منها وبالتالي تقويض الديموقراطية.
* تضاعف مستويات استنزاف الموارد الطبيعية والبيولوجية التي يتسبب فيها الرأسمال العالمي متعدد الجنسيات.

إن هذه المظاهر تبرز نوعين من التدمير الذي ينجر عن هذه الظاهرة العالمية الجديدة، هما تدمير البشر والطبيعة معا، ولمواجهة التدمير الذي تقوم به العولمة على المستوى البشري والبيئي فإن الحركة المناهضة للعولمة تركز على أهم الأطراف الفاعلة في آلية العولمة ، كالشركات المتعددة الجنسيات والمؤسسات المالية الدولية والتكتلات الاقتصادية، موجهة لهم انتقادات لاذعة باعتبار هذه الشركات العابرة للقارات هي التي تجسد هذا الظلم العالمي وتشجع هذا النظام الدولي السياسي الجائر "المستور بعباءة منظمة الأمم المتحدة ومجلس الأمن وكل المنظمات الدولية السائرة في فلكه" باعتباره نظاما عنصري شديد الطبقية مؤسس للاتكافؤ واللاعدالة قائم على تنمية التخلف وزرع التفقير الواسع ، وفي هذا الصدد يرى "إدوارد غالينو – Galiano Edwardo " بأن العولمة الزاحفة صنفت أطفال العالم إلى ثلاث فئات: أطفال الأغنياء، وأطفال الفقراء، وأطفال الطبقة المتوسطة ، أطفال الأغنياء يقول عنهم "في عصر العولمة يعيش أطفال الأغنياء في وضعية الكائن الذي لا هوية له ولا انتماء ، يكبرون بدون جذور، لا يحملون أية هوية وطنية وبدلا من شعورهم بالانتماء الاجتماعي تراهم ينساقون ، مع الاعتقاد الجازم بأن الواقع يشكل تهديدا لهم ، بأن وطنهم هو المنتجات والسلع ذات العلامات "أو الماركات" الرفيعة المشهورة أما لغتهم فهي الرموز العالمية ، إن الأطفال الأغنياء

في المدن ، يتشـــابهون في عاداتهم، كما تتشـــابه في جميع أنحاء العالم المطارات والمراكز التجارية الكبرى ، وبما أنهم يربون في عالم خيالي افتراضـــي فإنهم يظلون على جهل تام بالواقع الحقيقي المعيش الذي تنحصر هويته الوجودية بالنسبة لهم في كونه إما شيء مخيف وإما سلعة تشـــترى، لا غير، إنهم يدربون منذ ميلادهم على الاســـتهلاك ويقضـــون طفولتهم في التأكد من أن الماكينات هي أجدر بالثقة من الأشـــخاص: أكلات سـريعة، سـيارات سـريعة، حياة سـريعة « fast food– fast cars– fast life » أما الأطفال الفقراء فهم يولدون وجذورهم في الهواء ، كثير منهم هم أبناء فلاحين انتزعوا انتزاعا بعنف وقســـوة من الأرض ، ليأتوا إلى المدن حيث يهيمون غير مندمجين ، يبيعون أي شـــيء في الشوارع ، وهم يدا رخيصة للمصانع ، يتقاضون أدنى الأجور في معامل المنتوجات الاســتهلاكية ، كالأقمشــة والأحذية التي تُصــدَّرُ إلى المتاجر الكبرى في العالم ، لقد عملت هيمنة السـوق في بلدان عديدة على كسـر روابط التضـــامن وتمزيق الانســـجام الاجتماعي، الأطفال الفقراء يعانون بقسوة من التناقض بين ثقافة تطلب منهم أن يستهلكوا ، وواقع يمنعهم من ذلك ، أما أطفال الطبقات المتوسـطة فهم يعيشـون في جو كله تضـليل وتمويه ، هذه الطبقة تتظاهر بأن لديها أكثر مما عندها، وهي تعاني أكثر من أي وقت مضـى وتعمل على إخفاء حاجاتها وسـتر حالها إنها تعاني من الشـلل الذي يتسـبب فيه الرعب ، الرعب من فقدان العمل، من فقدان السيارة والمنزل والأشياء الشخصية، هي تدافع عن النظام القائم كما لو كان نظامها هي، بينما هي أســـيرة له إنها تعيش في هلع، ترتعد من عدم تمكنها من دفع فاتورة الكراء وفي هذا الهلع، الهلع من الحياة والهلع من

الفقر، تجتهد هذه الطبقة المتوسطة على القيام بواجب التنشئة الاجتماعية للأطفال.§§

ثانيا المواطنة العالمية والعولمة:

مفهوم المواطنة لا يتجلى ولا يتجسد فقط في مستوى المبادئ كمبدأ سيادة الشعب ، ومبدأ المساواة أمام القانون، ومبدأ تكافؤ الفرص، ومبدأ المشاركة في الحياة العامة، بل أساسا يتجسد في المضمون، أي في اتساع مجال المواطنة ليصبح عملية (process) تحمل مضامين عديدة على المستوى الكوني الأمر الذي يقتضي بالضرورة إعادة صياغة للمفهوم في حد ذاته من أدنى المستويات المحلية الى المستويات العالمية، وظهور ما يصطلح على تسميته بالمواطنة العالمية (Global Citizenship)، ويتم الربط بين مستويات المواطنة "مواطن الدولة والمواطن العالمي" بطريقة تسمح بالمصالحة بين الحق وكرامة الإنسان و بين سيادة الشعوب وتآزر كل سكان المعمورة نظرا للأن المواطنة العالمية تقتضي الاعتراف بالأخر كذات مختلفة، وتتلخص مواصفات المواطنة العالمية على النحو الآتي:

1. الاعتراف بوجود ثقافات مختلفة.
2. الاعتراف بوجود ديانات مختلفة.
3. احترام حق الغير وحريته.
4. فهم اقتصادات العالم.
5. الاهتمام بالشؤون الدولية.

§§ إدوارد غالينو، Eduardo Galeano ، أطفال العالم اليوم ، Le Monde diplomatique ، أغسطس ، 1996.

6. المشاركة في تشجيع السلام الدولي.(***)

هذه العناصر الستة التي تؤكد على الاختلاف الذي هو من سنن الحياة وتحيلنا للحديث عن الهوية الثقافية التي هي عامل حاسم في التأسيس للمواطنة العالمية وأي تجاهل لها أو تضييق للخناق عليها عبر آليات السوق وتوظيف جائر ومضلل لتقنيات الاعلام والاتصال ، هو فشل ذريع لمبادئ المواطنة العالمية ودعاوى التبشير بحقوق الانسان والديمقراطية. إن مفهومى العولمة والمواطنة، يكونان ثنائياً مترابطاً فى مجال الجدل العالمى الراهن، والعولمة تشير إلى الصور المعاصرة للتغيرات البنيوية السريعة، أما المواطنة فتشير إلى الحماية الاجتماعية وإعادة بناء روح التضامن ، ونظراً للتطورات العالمية في العقود الأخيرة، فقد أتضحت ضرورة الربط بين العولمة والمواطنة ، وفى مجال التفرقة بين الاتجاهات الفكرية المتناقضة فى تعريف العولمة، ألقى عالم الاجتماع "أنتونى جيدنجز"" Anthony Giddens "خطاباً افتتاحياً هاماً فى مؤتمر الأمم المتحدة في جنيف عن العولمة والمواطنة يرى فيه أنه يمكن تصنيف المفكرين في مجال العولمة إلى تيارين، الأول يقوده دعاة العولمة المبالغين « hyper – globaliz » ، والتيار الثان يقوده المتشككون فى العولمة « globalization scepitcs » أصحاب التيار الأول مرتبطون إيديولوجيا بعالم الأعمال، والعولمة تعنى لديهم اتساع السوق، لدرجة أن الدول القومية فقدت كثيرا من عناصر القوة التي كانت تمتلكها ، وعلى نقيض هذا التيار، يأتي تيار المتشككون في العولمة الذين يعتبرون أن

(***) طلعت مصطفى السروجي، المواطنة العالمية والإيكولوجية والسياسية قراءة واعية، الموقع الإلكتروني: www.wikispaces.com 2011.

دولة الرعاية الاجتماعية أو الدولة الوطنية يمكن أن تستمر في أداء وظائفها بجهاز ديمقراطي ، مع نسبة معينة من القوة الاقتصادية القومية الواجب الحفاظ عليها ، إن كلا التيارين مخطئ وأن الوقائع الجديدة في العالم تحتاج إلى نظريات جديدة، لأن النظريات الموجودة لم تعد تصلح للوصف والتفسير والتنبؤ ، إننا لا ندخل في إطار مجتمع كونى جديد، بقدر دخولنا في إطار فضاء كونى جديد يتسم بكونه فوضويا وغير مستقر واختفى فيه التضامن عبر الاشتراك في الدفاع عن قيم اقتصادية مشتركة فسحت المجال لسياسات الهوية والاستغلال والاستبعاد" Exclusion " الذي يعنى استبعاد فئات اجتماعية كاملة من دائرة التنمية ، فهل التحدي الكبير هو إيجاد مؤسسات جديدة قادرة على إعادة اللحمة بين الاقتصاد والمجتمع أي المصالحة بين مقتضيات الاقتصاد والسوق والمنافسة ومتطلبات الحاجات الأساسية للمجتمع من خدمات عمومية ومرفق عام متطور وعادل وتكفل أكثر وأكبر بحاجيات الفئات الاجتماعية الأكثر ضعفا وهشاشة ؟ ثم ما هو المضمون الحقيقي للهوية الوطنية في ظل هذه التحولات الهيكلية الجديدة والتي هي سابقة وتجربة مريرة تواجه سكان المعمورة الأكثر فقرا والأقل تطورا ، وما الذي يربطها بالمواطنة ؟.[†††]

والمواطنة الإيكولوجية ترتكز أساسا على الحقوق والتزامات مواطن الأرض، وتتجلى مظاهرها من المستوى المحلي الى المستوى العالمي، حيث يكون للمواطنة الإيكولوجية المستويان الآتيان:

[†††] طلعت مصطفى السروجى ، مؤتمر الخدمة الاجتماعية والمواطنه، المعهد العالى للخدمة الاجتماعية بالمنصورة، المواطنة العالمية والايكولوجية والسياسة الاجتماعية الدولية، قراءة واعية ، جامعة حلوان، مايو 2009 . http://socio.montadarabi.com/t2740-topic

- **المستوى الأول:** العلاقة بين الفرد المواطن /ووسطه المحلي.
- **المستوى الثاني:** العلاقة بين الفرد المواطن /ووسطه الإنساني العالمي غير مقيد بالحيز المكاني والزماني.

ويتبين من خلال هذا التداخل بين المستويين أن المواطنة الإيكولوجية تعني بأن يكون المواطن واعيا بأهم القضايا البيئية ليس داخل وطنه فحسب بل عضو نشطا وفاعلا وسط المجتمع الإنساني ككل، ولتحقيق هذه المواطنة فإن عليه واجبات تجاه شعوب العالم الأخرى فهو بالتالي مواطن ذو صبغة عالمية يحمل على عاتقه مسؤولية تتجاوز الحدود الجغرافية لبلاده للعالم بأسره ، وفي هذا الإطار تم تبني وثيقة المواطنة الإيكولوجية التي طرحها برنامج الأمم المتحدة لدول غرب أسيا UNEP، والذي أعلن عليها رسميا في منتدى الجمعيات الأهلية العربية في سبتمبر 2001 ، وتتمثل أسس بناء المواطنة الإيكولوجية حسب البرنامج من خلال تحديد الأهداف الرئيسية لتحقيق برامج ومشاريع المواطنة الإيكولوجية التي تتمثل فيما يلي:

1. تصحيح المفاهيم البيئية السائدة لدى المواطنين وتعديل المعتقدات والأفكار البيئية الخاطئة ومعالجة أسباب المشاكل البيئية الناجمة عن غياب مفهوم المواطنة الإيكولوجية.
2. إكساب المواطنين المهارات التي تساهم في الإصلاح البيئي من أجل تحقيق التنمية المستدامة.
3. الإسهام في رفع مستوى المعرفة والثقافة البيئية العامة للأفراد لتحفيزهم على المشاركة في اتخاذ القرارات ووضع الحلول المعنية بالشؤون البيئية والتنموية.

4. تبادل الخبرات بين المنظمات غير الحكومية وبين اللجنة الخاصة ببرنامج المواطنة الإيكولوجية التابع الى برنامج الأمم المتحدة للبيئة لدول غرب أسيا (UNEP).[‡‡‡]

ثالثا: الهوية الثقافية:

الهوية الثقافية هي كائن جماعي حيّ يتغير ويتحوّل أوّلا من الداخل بفعل تغيّر المرجعيات القيمية، وثانيا من الخارج بتأثير تطور علاقات الفرد والمجموعة مع التحوّلات الكونية ، التطوّر الداخلي تفرضه متطلبات الحداثة ، والتطور الخارجي تفرضه متغيرات العولمة ، والثورة التكنولوجية للإعلام والاتصال أصبحت تشكل أحد مظاهر العولمة وهذا يعني أن مجتمع المعلومات مرتبط عضويا بمبدَأَيْ المعرفة والحرية ، الأمر الذي يتطلب هوية تؤمن بالديمقراطية وثقافة الحوار، والاختلاف ، وإمكانية الوصول إلى المعلومة ، وهي قيم لا يمكن فصلها عن مجتمع المعلومات الذي يتطلب هوية جديدة قادرة على المصالحة بين المضمون الفكري للتراث وبين إمكانية مسايرة عقلية الانترنت وغزارة المعلومات ووفرتها وسرعة الحصول عليها ، هذه الوسائل الجديدة لتحصيل المعرفة تمثل فرصة تاريخية للهوية الثقافية العربية والإسلامية إذا توفرت عدّة شروط من أهمّها القضاء على الأمية وتقليص الفجوة الرقمية وإنتاج المضامين ونشر ثقافة المعرفة والحوار والانفتاح وبناء مؤسسات المجتمع المدني ، ولا يمكن تصوّر مجتمع المعلومات خارج المنظومة الديمقراطية التي

(‡‡‡) المواطنة الإيكولوجية، الموقع الإلكتروني، www.greenline.com.

تضمن حقوق المواطَنة محليا وتؤسس للمواطنة على المستوى العالمي دون إجحاف وتضييق على الهوية ، وكذا حق الأفراد في الوصول إلى المعلومة هذه البنية الأساسية تشترط أولا منظومة تربوية وبحثية متطوّرة ومتصلة بشبكة المعلومات العالمية ، وثانيا ثقافة رقمية تساهم فيها منظمات المجتمع المدني والمؤسسات الخاصة والعمومية ، إذ التوجّه الاستراتيجي لمجتمع المعلومات هو العمل بالأساس على تشكيل ثقافة الفرد وتنظيم الفضاء العمومي على فكرتي الحرية والمعرفة ، هذه الثورة الثقافية في السلوك والمفاهيم تتطلب تجاوز الهوية التقليدية المنغلقة على نفسها إلى هويّة منفتحة على الآخر ، هوية جديدة قادرة على تحقيق الانسجام بين الثوابت التراثية وعقلية الانترنت وشبكات التواصل الاجتماعي ، إذن العلاقة هي جدلية بين الهوية ومجتمع المعلومات وهي بهذا المنظور علاقة تأثير عميق قد يكون سلبيا أو ايجابيا، حسب قدرة الثقافة على إدماج الهوية الوطنية في حركة التاريخ وسيرورة العولمة من ناحية، وقدرة العقل السياسي " السلطة السياسية " المضطلع بمسؤولية الحكم على بلورة خيارات حداثية في منظومة الفكر والسلوك والمؤسسات ، فالمفصل الحقيقي بين الهوية والمعلوماتية هو الثقافة الديمقراطية بالمعنى المدني الذي يرادف الحداثة والمواطَنة الحرّة العارفة ، ورغم أن التفاعل الاتصالي لا يؤدي بالضرورة إلى الديمقراطية ، فإن دور الهوية الثقافية الجديدة هو خلق هذا التفاعل حتى لا يبقى مجتمع المعلومات مجرّد أسطورة تقنية ثقافية جديدة بين أيدي أقلية تستعمل الطرق الإلكترونية السيارة للإعلام لترويج قيمها ومشاريعها التجارية أو السياسية ، من هنا فإن الهوية القادرة على الصمود والإضافة في مجتمع المعلومات هي الهوية النقدية المتشبعة

بثوابتها الثقافية والوطنية§§§ المقاومة للعولمة التي هي عملية اقتصـــادية في مقام أول ، ثمّ ســـياســـية ، ويتبع ذلك الجوانب الاجتماعية والثقافية الســاعية مجتمعة وبصـورة واعية على كسـر الحواجز بين الدول وتحويل العالم إلى ما يشـبه القرية التي يلعب فيها الإعلام الدور الريادي ، خاصـة وأن الإعلام والاتصـــال والمعلومات تمثل اليوم المكونات الأســاســية في الاقتصـــاد العالمي ، وعليه يمكن أن نتســاءل بداية عن علاقة "المواطنة العالمية والهوية الثقافية بالعولمة" وهو ســـؤال يحيلنا للمكان " أو الجغرافيا والتاريخ " الذي ضــلّ على امتداد التركيبة الســياســية التقليدية ممثلا في الدولة الوطنية، مكان مغلق على مجموعة من الفاعلين الحاضـــرين ، في علاقات تقوم فيما بينهم وفقا لمدونة ثقافية حددت معالمها الهوية التي تعني الانتماء والاشـتراك في السـان والتاريخ والمكان والمعتقد، هذا المكان أصـــبح اليوم مجالا كونيا مفتوحا لتفاعلات أبعد من نطاقه المحدّد، تفاعلات يدخل فيها أفراد غير موجودين بالمكان ذاته وأحداث لا تحدث بالمكان ذاته، مما يجعل التعايش بين العولمة والهوية أمرا صـعبا للغاية ما دامت الهوية ترتكز على الخصـوصـية ، بينما تسـعى العولمة إلى تجاوز هذه الخصـوصـية. في هذا الصـدد يرى "سـمير أمين" أن اندثار الحدود السياسية والثقافية والقانونية أمام العولمة المدعومة بوسائل حديثة للاتصال كالأنترنت والفضـاءات التلفزيونية هو المدخل الأسـاسـي لهذه الايديولوجيا الثقافية التي تجاوزت كلّ الأشكال التقليدية للتواصل و أنتجت ثقافة جديدة ، وهي ثقافة ما بعد ما بعد المكتوب، ثقافة الصـــورة باعتبارها المفتاح

§§§ د. عثمان بن طالب " مجلة أفكار" – تونس " الهوية في مجتمع المعلومات أسئلة سوسيو ثقافية في المقاربة التونسية"

السحري لثقافة العولمة و يرى "سمير أمين" أيضا أنه بالإمكان تطوير ثقافة جديدة تجابه العولمة الثقافية المندسة تحت عباءة المواطنة العالمية وحقوق الانسان لحماية الهوية الثقافية من هيمنة النظام الرأسمالي المعولم. وإذا كانت العولمة تسير في اتجاه القضاء على الاختلاف كما أشار إلى ذلك " جين باوديلارد" " Jean Baudrillard " فإن هذا الاختلاف يمثل بالنسبة لـ" كلود لفي ستروس"– « Claude Lévi–Strauss » واقعا طبيعيا، إذ يلاحظ "كلود لفي ستروس" أن الحضارات والثقافات توجد في واقع الاختلاف وفي ضروب متنوعة من المجتمعات والحضارات. والتنوع الثقافي يولّد بالضرورة تلاقحا بين الثقافات، وهذا يعني أنه ليس هناك تلاقح حضاري دون مستفيد، والمستفيد الأول يسميه "ستراوس" بالحضارة العالمية ، والمشكل بالنسبة لـ"ستراوس" لا يتمثل في قدرة مجتمع ما على الانتفاع من نمط عيش جيرانه ولكن هو مشكل قدرة مجتمع ما على فهم ومعرفة جيرانه ، ومن هذا المنطلق فإن الحضارة العالمية لا يمكن أن توجد إلا كفكرة من حيث هيّ "تحالف للثقافات التي تحتفظ كلّ واحدة منها بخصوصياتها ، أما ما هو بصدد التحقق اليوم في ظلّ العولمة فليس إلا علامة تقهقر إنساني وكوني، لذلك ينقد لفي ستراوس فكرة التفوق الثقافي التي يعتبرها وليدة للحكم المسبق الذي تمثله المركزية الاثنية أي الميل إلى اعتبار ثقافتنا الخاصة نموذج للإنسان. من هذا المنطلق ذاته سعى " هانز جورج جادامير Hans–Georg Gadamer " إلى تحديد شروط الحوار البناء بين الثقافات في النقاط التالية:

–اللامركزية: إذ علينا أن نقبل القيام بتجربة الأنت.

–قبول الدخول في لعبة اللغة التي تقتضي جملة من القواعد تتمثل أساسا في الدخول في لعب الآخر للقيام بتجربة الحوار.

–مراجعة نظرتنا للحوار: فالحوار ليس حركة دائرية تحيل فيها الأجوبة إلى أسئلة مولّدة إلى أجوبة جديدة، إذ أن الحوار يشبه تجربة الفنّ الذي ينكشف إلينا كحدث مضيء والحقيقة التي تظهر لنا عندها بما هي حقيقة ممكنة تدفعنا إلى مراجعة منطلقاتنا إذ يتعلق الأمر بقبول التخلي عن الحقيقة النهائية و تحقيق تفاهم تأويلي يفتح على انفتاح المعنى و تعدده.

– اعتراف بدور العادات إذ علينا أن نتبين أن مواقفنا مبنية وفق العادة فنحن نعيش في مكان محدد و في فترة محددة و نتحرك في وسط معيّن و كل هذه العناصر تكون كياننا و الوعي التأويلي وحده ما يمكننا من الانفتاح على الحوار الحقيقي و النقد عبر التواصل.[****]

أما عابد الجابري[††††] فيحدد الهوية الثقافية بجملة من الأطروحات نستعرض بعض ما يفيد تحلينا للعلاقة بين المواطنة العالمية والهوية الثقافية حيث يرى بأن الثقافة هي "المعبر الأصيل عن الخصوصية التاريخية لأمة من الأمم، عن نظرة هذه الأمة إلى الكون والحياة والموت والإنسان ومهامه وقدراته وحدوده، وما ينبغي أن يعمل وما لا ينبغي أن يأمل" وأنه ليست هناك ثقافة عالمية واحدة، وليس من المحتمل أن توجد في يوم من الأيام ، وإنما وجدت، وتوجد وستوجد، ثقافات متعددة متنوعة

[****] "منتديات تونيزيا سات" http://www.tunisia-sat.com/vb/showthread.php?t=830856 "

[††††] محمد عابد الجابري، المسألة الثقافية ، قضايا الفكر العربي ، مركز دراسات الوحدة العربية ، الطبعة الأولى، بيروت ، 1994.

تعمل كل منها بصـــورة تلقائية، أو بتدخل إرادي من أهلها، على الحفاظ على كيانها ومقوماتها الخاصـــة ، وبأن الهوية الثقافية لا تكتمل، إلا إذا تجسـدت مرجعيتها في كيان مشـخص تتطابق فيه ثلاثة عناصـر: الوطن والأمة والدولة وأن ثقافة الاختراق تقوم على جملة أوهام هدفها "التطبيع" مع الهيمنة وتكريس الاســتتباع الحضــاري تتولى القيامَ بعملية تســطيح الوعي، واختراق الهوية الثقافية للأفراد والأقوام والأمم، ثقافةٌ جديدة تماما لم يشــهد التاريخ من قبل لها مثيلا ثقافة إشــهارية إعلامية ســمعية وبصــرية تصـنع الذوق الاسـتهلاكي (الاشـهار التجاري) والرأي السـياسـي (الدعاية الانتخابية) وتشــيد رؤية خاصــة للإنســان والمجتمع والتاريخ، إنها "ثقافة الاختراق" التي تقدمها العولمة بديلا للصــــراع الإيديولوجي. إيديولوجيا الاختراق تقوم على نشـر وتكريس جملة أوهام، هي نفسـها "مكونات الثقافة الإعلامية الجماهيرية في الولايات المتحدة الأمريكية"، وقد حصــرها باحث أمريكي في الأوهام الخمســة التالية: وهم الفردية، وهم الخيار الشــخصــي، وهم الحياد، وهم الطبيعة البشــــرية التي لا تتغير، وهم غياب الصــــراع الاجتماعي ، ومن هنا تتأتى حاجتنا في الدفاع عن هويتنا الثقافية بمســـتوياتها الثلاثة "الوطن والأمة والدولة" والتي لاتقل عن حاجتنا إلى اكتساب الأسس والأدوات التي لا بد منها لدخول عصر العلم والتقانة، وفي مقدمتها العقلانية والديموقراطية ، والجابري يؤكد في طرحه بأن العولمة نظام système ، والنظام لا يقاوم من خارجه إلا بنظام مكافئ له أو متفوق عليه ، ونحن في العالم العربي نعيش حالة اللانظام كما يقرر ذالك، ولا ســبيل إذن إلى مقاومة ســلبيات العولمة إلا من داخل العولمة نفسها، بأدواتها وبإحراجها في قيمها وتجاوزاتها.

أما " إدغار موران " Morin Edgar " فيعتبر الهوية مركبة من هوية شخصية وهوية اجتماعية وهوية ثقافية أي كهوية تدرك من الداخل ولكن أيضا كهوية يمكن التعرف إليها من الخارج وتمثل الأساس الذي يستمدّ منه أيّ مجتمع أو ثقافة اختلافها وتميزها عن مجتمع آخر أو عن ثقافة أخرى، فكيف يمكن إذا أن نحافظ على الهوية دون أن نلحق ضررا بما هو كوني؟ وحسب رأيه يجب أن ننظر إلى الوحدة من جهة كونها تنتج التنوع لا من جهة كونها تولّد التجانس وتقضي على التنوع.[####]

وكخلاصة ننهي بها هذا التحليل للعلاقة بين الهوية والمواطنة والعولمة بما يقرره صادق جلال العظم عن العولمة من حيث أنه يعتبر "العولمة هي وصول نمط الإنتاج الرأسمالي عند منتصف هذا القرن العشرين تقريبا إلى نقطة الانتقال من عالمية دائرة التبادل و التوزيع والسوق والتجارة والتداول إلى ، عالمية دائرة الإنتاج، و إعادة الإنتاج ذاتها" ، وهذا المفهوم حسب رأيه يستلزم عولمة التنميط الاجتماعي والثقافي و السياسي تبعا لعولمة دائرة الإنتاج و إعادة الإنتاج تلك في إطار سيطرة الرأسمال العالمي الموجه من قبل الشركات العابرة للقارات التي يتناقض وجودها مع الأنماط الاقتصادية والاجتماعية والثقافية والسياسية التي تجسدها الهويات المحلية، و لذلك، فإن الهوية هي كل المقومات الاقتصادية والاجتماعية والثقافية و السياسية المجسدة للخصوصية المحلية التي يمكن أن:

أ- تندرج في إطار العولمة بحكم التعبية والقبول بتعليمات المؤسسات المالية الاحتكارية الدولية، كصندوق النقد الدولي، و البنك الدولي، و

[####] "منتديات تونيزيا سات" http://www.tunisia-sat.com/vb/showthread.php?t=830856

منظمة التجارة العالمية، التي تملي على البلدان التابعة ما تتبعه في سياستها الاقتصادية والاجتماعية والثقافية والسياسية.

ب- أو أن تكون جزءا منها بحكم الاندماج الكلي والذوبان في النظام الرأسمالي العالمي والارتباط المطلق بمؤسساته، و اعتبار المصير واحدا.

ج- أو تقع فريسة لها، فتحتويها العولمة و تفرض عليها الذوبان فيها رغما عنها.

د- أو تدخل في صراع معها، وتعمل على تنظيم مناهضتها بحكم التناقض الحاصل بينهما.

ومن هذا المنطلق الهوية لا تبقى مفصولة عما يجري في العالم، فهي تدخل مباشرة في تفاعل مع ما هو إقليمي وقومي و عالمي، وخاصة في هذا العصر الذي اصبح كل شيء حاضرا معنا و قريبا منا ، و تزداد درجة التفاعل تلك بارتفاع المستوى الاقتصادي والاجتماعي والثقافي والسياسي للشعب حامل الهوية وتبعا لذلك فالهوية لا تنجو من التأثر بالعولمة : على مستوى اللغات واللهجات ثم على مستوى القيم الدينية والوطنية التي ستكون مهددة بقيم وافدة لا تقوى القيم المحلية على الصمود أمامها ، وكذلك على مستوى العادات والأعراف التي قد تحل محلها عادات وأعراف وافدة ،لا علاقة لها بالهوية المحلية ، وأخيرا على مستوى التاريخ النضالي للشعب حامل الهوية الذي قد يتعرض للتشويه ، و بدل أن يكون مفخرة للشعب يتحول بفعل ذلك إلى مذمة ، وبناء على تفاعلات الهوية الثقافية بقيم العولمة يمكن أن نقدم ردا مؤقتا عن طبيعة العلاقة بين الهوية الثقافية والمواطنة العالمية أمام تحديات العولمة ، إن الدول

الرأسمالية تتستر وراء الديمقراطية وحقوق الانسان وهوية الأقليات وقيم المواطنة العالمية ، في ظل العولمة الزاحفة القائمة والمؤسسة لعلاقات الهيمنة إنها علاقات لا تخرج كثيرا عن العلاقات التقليدية والتاريخية التي ربطت الدول الرأسمالية بالدول الفقيرة والنامية هي علاقات استعمارية وعلاقات سيطرة واستغلال بأدوات جديدة ومسميات مختلفة ، هذه العلاقات يلعب فيها الإعلام دورا محوري باعتباره جهازا ايدلوجيا يوظف الكلمة والصورة ليبرر الأوضاع القائمة محليا واقليميا ودوليا ويعمل حثيثا وبدون هوادة للقضاء على الخصائص الثقافية للشعوب في جميع أنحاء العالم لصالح الشركات العابرة للقارات.

المراجع:

1- طلعت مصطفى السروجى ، مؤتمر الخدمة الاجتماعية والمواطنه، المعهد العالى للخدمة الاجتماعية بالمنصورة، المواطنة العالمية والايكولوجية والسياسة الاجتماعية الدولية، قراءة واعية ، جامعة حلوان، مايو 2009 .
.http://socio.montadarabi.com/t2740-topic

2- معطار بدرية، البعد الاتصالي للجمعيات البيئية ومكانة المواطنة الإيكولوجية ،دراسة وصفية تحليلية لمخططات الاتصال البيئي للجمعيات البيئية الناشطة في الجزائر ،تحت اشراف الأستاذ : بلقاسم بن روان، مذكرة مقدمة لنيل شهادة ماجستير في علوم الإعلام والاتصال ، جامعة الجزائر"3" ،كلية علوم الاعلام والاتصال ، 2011-2012.

3- عيسى الشماس، المجتمع المدني المواطنة والديموقراطية، منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق، 2008.

4- أولريش بك، ترجمة أبو العيد دودو، هذا العالم الجديد ! رؤية مجتمع المواطنة العالمية، الطبعة الأولى، منشورات الجمل، كولونيا، 2001.

5- جودت هوشيار، الحركات المناهضة للعولمة: ما لها وما عليها، الموقع الإلكتروني، www.ahewar.org.

6- علاء محمد خواجة، العولمة والتنمية المستدامة، الموسوعة العربية للمعرفة من أجل التنمية المستدامة، الطبعة الأولى، الأكاديمية العربية للعلوم، بيروت.

7- إدوارد غالينو، Eduardo Galeano ، أطفال العالم اليوم ، Le Monde diplomatique، أغسطس ، 1996.

8- طلعت مصطفى السروجي، المواطنة العالمية والإيكولوجية والسياسية قراءة واعية، الموقع الإلكتروني: www.wikispaces.com . 2011

9- طلعت مصطفى السروجى ، مؤتمر الخدمة الاجتماعية والمواطنه، المعهد العالى للخدمة الاجتماعية بالمنصورة، المواطنة العالمية والايكولوجية والسياسة الاجتماعية الدولية، قراءة واعية ، جامعة حلوان، مايو 2009 http://socio.montadarabi.com/t2740-topic

10-المواطنة الإيكولوجية، الموقع الإلكتروني، www.greenline.com.

11-د. عثمان بن طالب " مجلة أفكار" – تونس " الهوية في مجتمع المعلومات أسئلة سوسيو ثقافية في المقاربة التونسية".

12-" منتديات تونيزيا سات " " http://www.tunisiasat.com/vb/showthread.php?t=830856

13- محمد عابد الجابري، المسألة الثقافية ، قضايا الفكر العربي ، مركز دراسات الوحدة العربية ، الطبعة الأولى، بيروت ، 1994.